منف الغابرة ومنف الحاضرة

النبذة الثالثة . في مدافن سقارة

كانت منف من اعظم مدن القطر المصري بل من اعظم مدن المسكونة حين لم تكن لندن وباريس شيئاً مذكوراً . ولبثت زاهلة بالوف العظمة الى ايام الفتح الاسلامي ولذلك فمدافنها مختلفة الازمان متباينة الاشكال منها ما انشئ قبل الآن باكثر من ستة آلاف سنة ومنها ما انشئ منذ اقل من الف وثلث مئة سنة . وبين هذين الحدين قبور لا تحصى مختلفة شكلاً ووضعاً بحسب منزلة اصحابها وزمانهم وهي منفصلة مستقلة لا يصدق عليها قول المعرّي حيث قال

صاحِ هذه قبورنا تملأ الرحـ ـبَ فاين القبور من عهد عادِ
ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الاضدادِ

وكلامنا الآن في المدافن الفنية لانها اغرب من الحديثة وابدع ولان كل واحد منها كتاب ارتسمت على صفحاتو معتقدات المصريين القدماء في الحياة الدنيا وفي الحياة الاخرى بحروف لم تقوَ نوائب الدهر على محوها وانطبعت عليو اعمالهم في الراحة والتعب والسرّاء والضرّاء بصور ونقوش يعجز قلم البليغ عن المجيء باوفى منها . ولقد تخلفت هذه الآثار عن اصحابها الى عصرنا ولم يدركها البلاء والفضل في ذلك للرمل الذي حجبها عن الابصار هذه الدهور الطوال والاّ فلو عثر عليها احد في ايام عبد اللطيف او قبلهُ او بعدهُ للعبت بنقوشها ايدي سبا واقتلعت حجارتها وبنيت بها منازل الفسطاط كما اقتلعت حجارة منف فطمست منازل الاموات كما طمست منازل الاحياء

وتشترك هذه المدافن في ان كل مدفن منها ثلاثة اقسام دار خارجية فيها غرفة او اكثر ودار داخلية فيها ناووس الميت وسرب يوصل بينهما . ومدخل الدار الاولى الى الغرب غالباً وهو اما ساذج واما مزدان بالصور والنقوش وعلى عتبو اسم الميت والقابهُ ودعاء لانوبيس الاله الحافظ للقبور لكي يُعدّ للميت جنازة حافلة ومدفناً فاخراً بعد ان يعيش عمراً طويلاً بالرغد والهناء ولكي يلطف بو وهو سائح في الحياة الاخرى التي عبر القبر ولكي يجعل القرابين التي تقدم لضريحو متواصلة الى الابد . ويتلو ذلك ذكر هذه القرابين وآجال تقريبها . وكل ما في الدار الخارجية يشير الى هذه الطلبات الثلاث . وكانت هذه الدار هيكلاً يجتمع فيو اهل

الميت وكهنتهم في اوقات معينة و يقرّبون القرابين المذكورة . وهنالك صور ونقوش كثيرة تمثل الميت في احوالهِ المختلفة الى ان يحمل على جنازتهِ و يؤتى بهِ الى مقامهِ الابدي . وصور موائد عليها الوان الطعام الذي يقرّب للميت من لحم وخبز وخمر وفاكهة

والظاهر ان المصريين الاقدمين لم يجزعوا من الموت ولا شكّوا في الخلود ولا في عود النفوس الى الاجساد بل كانوا يحسبون الحياة الاخرى مثل الحياة الدنيا دارًا للعمل والتمتع باطايب الحياة . وكان مبدأ الاتصال راسخًا في نفوسهم فلم يخامرهم ظنٌّ بانفصال الاموات عن الاحياء انفصالاً تامًّا بل كانوا يقرّبون القرابين و يسكبون السكائب لموتاهم وهم على يقين ان كل ما يقدمونهُ لهم يصل اليهم بل كانوا يصوّرون بيوتهم ومقتنياتهم ليتمتعوا بها بعد الممات كما تمتعوا بها في الحياة . كل ذلك تراهُ واضحًا في القبرين اللذين وعدنا باستيفاء الكلام عليهما في هذا الجزء

القبر الاول قبر تيه او تي او تمي . واسمهُ كاسم الاشارة المؤنثة في العربية وارد على ضروب شتى وهو كاهن عظيم من ايام الدولة الخامسة التي حكمت مصر قبل الآن بنحو ستة آلاف سنة وكان في ايام الملك اوزرترا آن وكان نبي الانبياء في عصرهِ وتزوّج باميرة من بنات الملوك اسمها نفرهوتب اي القرينة الجميلة وكانت كاهنة ونبية للالهة هاثور وللالهة نيث . وحتى الآن لم نرَ مكانًا فيهِ من النقوش البديعة مثل ما في هذا القبر . ويقال ن نقوشهُ فيها من الرونق اكثر من كل ما في سواها من نقوش القبور المصرية ولكن من حين ما كشف الرمل عنهُ ودخلهُ السياح واهل البحث ذهب كثير من رونقهِ لان دخان الشموع لطخ الجدران واسياء السياح تلمت كثيرًا من نقوشها ومناسخ[1] الباحثين ذهبت بما عليها من الطلاء والطراءة كأن نوائب الدهر شكت عجزها الى امثل هذا العصر فاخذوا بناصرها وعزموا ان ينسدوا ما عجزت عن انسادهِ

والداخل الى هذا القبر يرى اولاً عمودين قائمين في مدخل الدار الخارجة ويرى على جدار الدار الايسر نقوشًا كثيرة من زوارق ماخرة في النيل وعليها تماثيل تيه وثيران تذبح في عيدهِ السنوي . ومن هذه الثيران ما قبض عليهِ الرجال واوثقوا قوائمهُ ليرموهُ على الارض ويذبحوهُ ومنها ما ذبحوهُ وهم يقطعون اوصالهُ . والى اليمين صورة الكاهن تيه نفسهِ ومعهُ

(١) تصنع هذه المناسخ من رب الورق وتلصق بالحجر الذي عليهِ النقوش والكتابة فيجمد الرب وترتسم الكتابة عليهِ

زوجته واولاده وهو يراقب خدّامه في اعمالهم وهم جارون فيها جري الامناء بعضهم حامل العدال على كتفيه وبعضهم يطلب الطيور تعليقًا بافراص من الطين يكتلها بيده ويرقها للطير رقًا . وهناك صورة بيوت الفلاحين في ذلك العصر وسقوفها قائمة على عمد من الخشب المنقوش وفي عرصاتها برك يسبح البط فيها والماشية ترعى وراء البيوت . وقد كانت ماشية هذا الكاهن كثيرة الانواع من البقر والوعول والغزلان والمعزى البرية ومعها الوزّ والبط والبجع والحمام . وكانت اراضيه واسعة وغلاله كثيرة تأتيه السنن مشحونة بخيرات ارضه من اكياس الحبوب وآنية السمن والزيت والعسل الى غير ذلك مما يطول شرحه

وفي هذه الدار سرداب يوصل الى غرفة الميت وهو نازل في الارض على خط مائل والغالب ان يكون عوديًا . ولم ننزل فيه بل لم ننتبه اليه حينئذٍ ولكننا دخلنا سردابًا آخر يفضي الى غرفة فسيحة غطّت النقوش جدرانها وتفنن الصنّاع فابدعوا في اشكالها والوانها والسرداب المتصل بها جداراه مغطيان بالنقوش ايضًا بين خدّام يأتون بالقرابين من الاثمار والخضر وآنية الزيت والطيوب وغيرهم يقودون الثيران للذبح وبعضهم يجرّون التماثيل التي يؤتى بها لتوضع في القبر وواحد منهم يسكب ماءه على الارض لكي يتسهل جرّها عليها . اما نقوش الغرفة الداخلية فآية الآيات في الاتقان والرونق والاستيعاب لانها تمثل الكاهن تيه في كل حال من احوال الحياة وتبين غناه وعظمته واحوال خدمه ومواليه تبيينًا يعجز عن وصفه قلم البليغ . فتارة تراه في قارب يصطاد طيور الماء وتمت القارب التمساح وفرس البحر (٢) يتصارعان .

(٢) يكثر التمساح في النيل ولا سيما في الصعيد الاعلى واما فرس البحر فكانت تنزل في النيل حتى بحر دمياط . ذكر عبد اللطيف البغدادي ان واحدة كانت بحر دمياط ضربت على المراكب تغرقها وصار المسافر في تلك الجهة مغررًا وضربت اخرى بجهة اخرى على الجواميس والبقر وبني آدم تقتلهم وتفسد المحرث والنسل واعمل الناس في قتلها كل حيلة من نصب الحبائل الوثيقة وحشد الرجال باصناف السلاح وغير ذلك فلم يجد شيئًا فاستدعي بنفر من المريس صنف من السودان زعموا انهم يحسنون صيدها وانها كثيرة عندهم ومعهم مزاريق تنوجيوا نحوها فقتلوها في اقرب وقت ويأتون سعي وأتوا بها الى القاهرة فشاهدتها فوجدت جلد احداها اسود اجرد نخينًا جدًا وطولها من رأسها الى ذنبها عشر خطوات معتدلات وهي في غلظ الجاموس نحو ثلاث مرات وكذلك رقبتها ورأسها . وفي مقدم فيها اثنا عشر نابًا ستة من فوق وستة من اسفل المطرفة منها نصف ذراع زائد والمتوسطة انقص بقليل . وبعد الانياب اربعة صفوف من الاسنان على خطوط متساوية في طول الفم في كل صفّ عشرة كامثال بيض الدجاج المصطف صفان في الاعلى وصفان في الاسفل على مقابلها واذا فغروها وسع شاة كبيرة وذنبها في طول نصف ذراع زائد غليظ وطرفه كالاصبع اجرد كانه عظم شبيه بذنب الورل وارجلها قصار طولها نحو ذراع وثلث ولها شبيه بمخلب البعير الا انه مشقوق الاطراف باربعة اقسام وارجلها في غاية الغلظ اه . والظاهر انه لم يدقق النظر في اسنانها لان كل صفّ من اضراسها ستة لا عشرة كما قال ولكن

وطوراً تراهُ واقفاً يراقب خدمهُ وهم يصطادون الاسماك والحيتان . اما مناظر الحقول واعمال الزراعة فقد استوفت كل شيء يصنع في الحقل من حرث الارض الى زرعها وحصدها وتحميل حزمها على الحمير الى المخازن . وهناك صور التجارين يبنون السفن ويصنعون ادوات البيت المختلفة والكاهن تبه واقف امامهم او جالس يراقب اعمالهم وينظر اليهم نظر السيد الى عبيدهِ وهو راضٍ عنهم ومستحسن لاعمالهم وتلوح على وجههِ امارات السيادة والرضى . ولو اردنا ان نوفي الشرح حقهُ ونصف كل ما شاهدناهُ على جدران هذه الغرفة من المشاهد البديعة مشهداً مشهداً لملأنا بوصفها صفحات كثيرة فكفى ما ذكر مثالاً على ما لم يذكر

المدفن الثاني مدفن فتاه هوتب وهو الى الجنوب من السرابيوم ويدخل اليهِ بسرداب بعضهُ منحدر وبعضهُ مستوٍ كانهُ سرداب المرم الاكبر ويوصل من هذا السرداب الى غرفة فسيحة جدرانها مغطاة بالكتابة والنقش . وفتاه هوتب هو الامير الكاهن الذي كتب كتاباً في الحكم والامثال ومما قالهُ فيهِ ان عينيهِ صغيرتان واذنيهِ مسدودتان وفوهُ ضعيفة وفمهُ صامت لا يتكلم وذاكرتهُ لا تتذكر وعظامهُ لم يعد منها جدوى وكل صالح فيهِ صار رديئاً وذوقهُ زال والشيخوخة تزول بها البهجة الحياة . وقال ايضاً اذا ارتفعتَ بعد ضعةٍ واغتنيتَ بعد فقرٍ وصرتَ الاول في مدينتك . واذا اشتهرت بغناك وصرت سيداً عظيماً . فلا يفتخرنَّ قلبك بغناك لان الله هو الذي اغناك ولا تحتقرنَّ الفقير الذي كنت مثلهُ بل عاملهُ كما تعامل مثيلك . وقال في مكان آخر ليكن وجهك مسروراً ما دمت حيّاً لانهُ ما من احد عاد من قبرهِ

هذا طرف من حكمة المصريين الاولين وهي اشبه شيء بحكمة سليمان والجامعة . وهذا وصف وجيز لمدافن موتاهم وما فيها من بديع النقش والزخرفة . وعسى ان تمكننا الفرص من تلخيص كثير من هذه الآثار واتحاف القرّاء الكرام بما نستطيعهُ من وصفها

دهان اسود لامع

اذب درهمين من صمغ اللك الفشري في ثمانين درهماً من الكحول واضف الى المذوب درهماً ونصف درهم من الكافور ودرهمين من السناج او اسود العاج فيكون من ذلك دهان اسود لامع

الثلاثة المتاخرة من هذه السنة تكون مزدوجة الراس . وامسك فرس من افراس البحر سبق المنصورة في ايام محمد علي بانها جد العائلة الخديوية